الشيخ القاضي محمد المهدي- قاضي قضاة العاصمة الشادية المعاصرة- وتأثيره الثقافي على منطقة حوض بحيرة شاد (1325 – 1400هـ)

د. محمد صالح أيوب*

المقدمة

ينطلق بحث تأثير الشيخ القاضي محمد المهدي الصمب أنجاي (1325 – 1400هـ) على منطقة حوض بحيرة تشاد ، من فرضية أساسية مفادها أن الميراث العلمي والثقافي الذي ازدهر في مدينة تنبكتو، قد ظل يشع بأنواره في المناطق المجاورة لها في الغرب والشمال والوسط الإفريقي.

وقد أتيح للباحثين أن يدرسوا هذه الآثار في كل من غرب إفريقيا ، مثل : دراسة الشيخ موسى كمرا بعنوان:أشهى العلوم و أطيب الخبر في سيرة الحاج عمر، التي أشار فيها إلى تأثير علماء السودان الغربي (مالي) على الحياة العلمية والثقافية والسياسية لدى سكان غرب إفريقيا[1].

وقد اطلع الباحث على عدد من الآثار الثقافية والعلمية لعلماء تنبكتو على شمال إفريقيا والمغرب، مثل أعمال أحمد بن القاضي التنبكتي: مصلح فولاني في بلاد المغرب[2]، التي أشار فيها إلى ملاحظات مهمة حول الحياة الاجتماعية والعلمية والثقافية والسياسية في المغرب ورأيه العلمي حولها.

وما أشار إليه البرتلي في فتح الشكور في معرفة علماء تكرور، من أدوار لبعض علماء المدرسة التنبكتية ومحاوراتهم مع زملائهم من علماء المغرب العربي[3].

---

* أستاذ علم الاجتماع بجامعة الملك فيصل بشاد

وما كتبه أحمد بابا في معراج الصعود، وغيره من الكتب التي كتبها في المغرب أثناء وجوده هناك، يدل دلالة هامة على مدى التواصل العلمي بين علماء المدرسة التنبكتية وعلماء المغرب[4].

ولكن الدراسات العلمية محدودة حول أثر علماء المدرسة التنبكتية على وسط إفريقيا ومنطقة حوض بحيرة تشاد خاصة.

ومن هنا جاءت أهمية هذه الدراسة لتلقي الضوء على بعض جهود علماء منطقة السودان الغربي (مالي)الذين تم تكوينهم وا ٍعدادهم على الأسس التربوية للمدرسة التنبكتية.

وقد وجد الباحث أنه من المناسب أن يعرض في بداية هذه الجهود أعمال الشيخ القاضي محمد المهدي الصمب أنجاي (1325 – 1400م) الذي نقل جميع خصائص الجو ّ التعليمي والثقافي في المجتمع التنبكتي ، الذي قام على إعلاء مكانة العلم والعلماء، وركز البحث على بعض مظاهر هذا الجو ومنها:

العناية بالأمانة العلمية في نقل تراث العلوم الإسلامية ، خاصة التي تطورت في المغرب العربي، ولكن علماء تنبكتو لم ينكفئوا عليه فقط، بل اتصلوا بالعلوم الإسلامية في المشرق العربي ودعوا كبار علمائهم لنشر العلم والمعرفة في مراكزهم ومدنهم، خاصة في جامعة سنكري وغيرها، ويمكن الإشارة هنا إلى الاستفادة من أعمال الإمام السيوطي وغيره من علماء المشرق الإسلامي، ومن خصائص كمال العلم والعلماء في هذه المنطقة حكمتهم في التسامح والمرونة في التعامل مع عادات وتقاليد شعوب المنطقة، وما تلا ذلك من رفع لروح الإحسان والتضحية في جميع سلوك العلماء والإكثار من الإحسان والتضحية إذا وقعت من المسلمين واعتبار ذلك من شعائر الإسلام، فقد أشارت الكتابات المحلية إلى أن الأساس في انتشار مدن مثل تنبكتو وجنى في السودان الغربي كان التضحية والإحسان ليس من الرجال بالدرجة الأولى، بل من محسنات من النساء الإفريقيات في البداية، ثم تزكية هذه الأعمال من العلماء والرجال،

بل ومن الحكام، مما أعطى مكانة خاصة لجهود الإحسان والتضحية وارتباطها بالعلم والعلماء، وهنا يمكن الإشارة إلى السيدة الغلالية العظيمة التي ساهمت في إنشاء المراحل الأولى من جامعة سنكري العظيمة، ثم جاءت جهود القضاة والعلماء والحكام لتأييد أعمالها وإكمال ما بدأته من تضحية بمالها من أجل رفع راية العلم والمعرفة في تنبكتو بعد ذلك، ثم ذاع صيت هذه الجامعة بعدما تَبَنّى مشروعها الملوك والسلاطين في جميع مراحل دولة مالي الإسلامية، ولا تكتمل صورة الخصائص المميزة لتنبكتو وعلمائها إلا بالإشارة إلى ما أولوه من عناية لمكانية القضاة والإمامة تمكيناً وتثبيتاً للقيم الإسلامية السابق ذكرها، حيث كان للقاضي صلاحيات رعاية التعليم، ودور العبادة، والذكر، وداخليات طلاب العلم، وحماية الأرامل والأيتام، ورعاية أموال اليتامى، والقصّر حتى يكبروا، وللقضاة في القيام بهذه الأعمال والوظائف اليد الطولى المسموح لهم بها من قبل الملوك والسلاطين، ناهيك عن الاستقلال في الشؤون المالية برعاية الزكاة والأوقاف وهبات المحسنين مع المخصصات الرسمية الممنوحة لهم من المال العام للدولة والمملكة، ولهذا رأى الكتاب أن القاضي في تنبكتو هو الذي يعين الأئمة في المساجد الكبيرة، ويرعى شؤون المساجد، وبالتالي لا يُسمح عادة بالجمع بين القضاء والإمامة إلا في حالة واحدة نادرة، سنذكرها في ثنايا البحث.

وما يميز خصائص هذه المنطقة في رعايتها للعلم والعلماء والقيم السامية المصاحبة لهذه المكانة، ليس نشأتها وثباتها في الكتابات والروايات المحلية التي وصلت إلينا عن طريق كتب ومخطوطات موثوقة، وإنما قدرتها على الاستمرار عبر العصور ، رغم الظروف والتيارات الجارفة التي هبّت عليها، وأهمها الغزو الأوربي خاصة الفرنسي للسودان الغربي، حيث لاحظ الباحث في هذه الدراسة أن الشيخ القاضي محمد المهدي الصمب أنجاي قد حافظ في جهوده وأعماله على معظم الخصائص العامة للثقافة التنبكتية العلمية التي أشرنا إليها في الجزء الأول من ثنايا هذا البحث.

أما الجزء الثاني فخصص لتأثير الشيخ محمد المهدي على المجتمع التشادي، مستفيداً من نشأته في أسرة دينية ساهمت في تكوينه العلمي الأول لدرجة حفظ أكبر قدر من القرآن الكريم والكتب الأولية في الفقه والنحو واللغة العربية، ثم شجعته إلى الرحلة العلمية لإكمال تعليمه العالي في بلاد شنقيط (موريتانيا حالياً) وكان نعم الطالب حيث استطاع استيعاب علوم أساتذته بأدب جم، وولاء تام، إلى أن استأذن أستاذه العالم الروحاني بتلك الطريقة الذكية بكتابته لتلك القصيدة العصماء، التي أعطت الانطباع لأستاذه والطلاب النابهين لديه، أنه يستحق الإجازة والإذن له بالسفر إلى الأراضي المقدسة (الحجاز)، وكانت رحلته رحلةعالم عامل بعلمه، فما حلّ في منطقة إلا وكان للدروس حظ منها، فنشر العلم والمعرفة وزكاها، إلى أن وصل إلى منطقة فورت لامي (أنجمينا حالياً) عام 1936م، ووجد فيها من الأتباع والتلاميذ، من هم في حاجة ماسة لعلمه وثقافته الواسعة، فأكرموه وأعزوا العلم الذي يحمله، وكان لهذا الإكرام والإعزاز كبير الأثر في شخصية القاضي محمد المهدي، في أن يتخذ قراره الحازم ، بأن يـُفَضِّل هذه المنطقة على غيرها من بلاد الإسلام التي عرفها ودرّس فيها العلم ووجد فيها الحفاوة وحرارة الاستقبال ما لا يحصى.

وكان لرعاية تلميذه الإمام حسن دمان ابن شيخ القبيلة العربية المشهورة في بوطة الفيل، شأنه في استقرار محمد المهدي في فورت لامي ، وتعيينه فيما بعد قاض للقضاة في العاصمة فورت لامي أيام الفرنسيين.

ولم يكتف الشيخ محمد المهدي بهذه الوظيفة، بل ظل محافظاً على الإرث الثقافي لقضاة تنبكتو، فظل يرعى التعليم الإسلامي ويدرس بعض الفنون بنفسه، واشتهر منها: بالتفسير ، وأصول الحديث رواية ودراية ، وقواعد العربية . رغم العجمة القليلة البادية على لسانه . ، وعلوم الفقه المالكي، خاصة الميراث، الذي لنا منه كتاب كامل بعنوان: كشف الغوامض عن ذوي الفرائض على مذهب الإمام مالك بن أنس، وعلوم

الأدب العربي، التي له منها قصائد كادت أن تكون ديواناً ، كما يذكر الشيخ إبراهيم صالح في كتابه: الاستذكار لما لعلماء كانم برنو من أخبار.

وقد ذكر للباحث بعض تلاميذه وأهمهم، الشيخ موسى عمر عبد العزيز (عميرة) عضو المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في أنجمينا حالياً، أن الشيخ محمد المهدي كان له جدول في الدروس والعلوم السابق ذكرها، صَعُبَ حتى على تلاميذه متابعته فيه من دقته، وطول المدة التي يقضيها فيه، فيومه كله موزع تقريباً بين القضاء والتدريس، لدرجة أن تلاميذه تدخلوا في منح أستاذهم بعض الوقت للراحة ، خاصة في أيامه الأخيرة، فكان لا يوافقهم على تعديل جدوله إلا مرغماً .

وتميزت حياته العامة بالمشاركة في الشؤون الثقافية والاجتماعية والسياسية كعالم عامل بعلمه، رغم ما ذكره بعضهم من تأثره بالتصوف، ولكنه تصوف عمل وجهاد، ولم تعرف عليه العزلة والخلوة، حتى في أصعب أيام حياته السياسية، حيث اتهم بالدخول في صراعات بين المسلمين والمسيحيين من أصحاب الأحزاب السياسية، وساعد في ذلك رجوع تيار المثقفين باللغة العربية من مصر في عهد عبدالناصر، فرأوا في منهج الشيخ محمد المهدي مهادنة للفرنسيين أو أتباعهم وعدّوه ضمن علماء السلطان، بينما هو متصف بخاصية التسامح المعروف في المدرسة التنبكتية.

وظل مرفوع الرأس ، مكابرا مجاهدا بعلمه وثقافته ، على طريقته الخاصة التي شرحناها في ثنايا البحث، مستدلاً بالأدلة الشرعية المنتقاة من المذهب المالكي، والمضاف إليها وَعْيَهُ المعروف عنه بأصول الحديث النبوي ، والاستفادة منه رواية ودراية ، فعلّم عدداً من التلاميذ على الطريقة التنبكتية المعتمدة على حفظ المتون على المذهب المالكي، مع عناية ملحوظة بالأدب العربي، خاصة الشعر الذي اعتبره علماء السودان الغربي عنوان ثقافتهم، فكلّما استطاع العالم من منطقة السودان الغربي التعبير عن أفكاره وآرائه شعراً ، كلما دل ذلك على إلمامه بالعربية والعلوم الإسلامية، وتجاوزه للعجمة واللهجات المحلية، التي هي لغة عامة الناس، وارتقائه إلى لغة كبار المثقفين،

وهي اللغة العربية، وأعلى إتقان للعربية عندهم هو القدرة على قرض الشعر بها على حسب بحوره وقوافيه، واستعمال ما استصعب فهمه وبَعُدَ استخدامه من كلمات العرب، وقصيدة الشيخ محمد المهدي الصمب أنجاي التي أوردناها في هذا البحث هي أهم دليل على هذه الثقافة وهذا الإتقان.

أولاً: مكانة العلم والعلماء في السودان الغربي (مالي):

ورثت مجتمعات السودان الغربي عدداً من المميزات والخصائص التي تبجل مكانة العلم والعلماء من أسلافهم الأوائل الذين أنشأوا وأداروا مراكز ومدناً إسلامية ، مثل: تمبكتو وجنى، ومساجد وجامعات إسلامية ، مثل : جامعة سنكري العظيمة.

ونظراً للظروف الموضوعية لهذا البحث الذي يركز على أثر عالم واحد من علماء السودان الغربي في الفترة التي سبقت دخول الاستعمار الفرنسي إلى هذه المناطق وهو العالم محمد المهدي الصمب أنجاي من علماء السودان الغربي (مالي) الذي ساهم في نشر العلوم الإسلامية في السودان الأوسط (بحيرة تشاد)، فإننا سوف نركز على مظاهر معينة لمكانة العلم والعلماء في السودان الغربي (مالي) وهي المظاهر التي لها أثر واضح في نشأة وحياة الشيخ محمد المهدي الصمب أنجاي، مثل: دور علماء السودان الغربي في نقل العلوم الإسلامية إلى إفريقيا ما وراء الصحراء بأمانة علمية مشهودة، وكذلك مظاهر التسامح في نشر الإسلام، والإحسان والتضحية في ذلك، مع الإشارة إلى تركيزهم الشديد على القضاء والإمامة كمهام أساسية من مهام العلم والعلماء في المنطقة.

1) الأمانة في نقل العلوم الإسلامية إلى إفريقيا ما وراء الصحراء:

يولي العلماء في السودان الغربي عناية كبيرة للأمانة والصلاح في نقل العلوم الإسلامية، فقد ذكر مولاي أحمد بابير الأوراني في كتابه السعادة الأبدية في التعريف بعلماء تنبكتو البهية، نقلاً عن الفقيه القاضي محمد الكابري أنه قال «أدركت من

صالحي سنكري من لا يَقْدُم عليهم أحد في الصلاح والعلم إلا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم»[5].

ويشير في موقع آخر إلى أن هؤلاء العلماء تميزوا بنقل العلوم الإسلامية التي على مذهب الإمام مالك رحمه الله دون غيره من المذاهب الإسلامية مما جعل «أهلها كلهم مالكيون، وعقيدتهم عقيدة أهل السنة، مطهرون من النوايا المنحرفة الواهية، والعقائد الفاسدة العنكبوتية»[6].

ومن يلاحظ إنتاجهم العلمي يكتشف هذه الأمانة العلمية في نشر العلوم الإسلامية في أصفى صورها.

ويمكن الاستشهاد هنا بعمل الشيخ أحمد بابا التنبكتي: معراج الصعود، فهو عمل علمي فقهي سياسي مكمل للقواعد الشرعية، التي كتبها محمد بن عبد الكريم المغيلي (ت 1503م) وجلال الدين السيوطي (ت 1505م)، والعملين العلميين الآخرين كانا إجابات لأسئلة قدمها الأمير الحاج محمد أسكيا السنغاي لكلا العالمين، بينما كتاب معراج الصعود لأحمد بابا التنبكتي كُتِبَ بعد ذلك بزمن طويل، ولكنه حافظ على المنهج العلمي في النقل والتوثيق وتحليل الأدلة الشرعية بنفس نسق صاحبيه المغيلي والسيوطي[7].

ومما ساعد علماء السودان الغربي (مالي) على الاحتفاظ بالأمانة العلمية في نقل العلوم الإسلامية بأمانة، أن ما يدرس في جامعة سنكري ومساجد وحلقات العلوم الإسلامية في السودان الغربي، مماثل –تقريباً –لنفس المنهج و الكتب التي كانت تدرس في المراكز الإسلامية العلمية مثل الأزهر، وفاس، والقيروان.

فمن الكتب المتداول تدريسها عند علماء السودان الغربي (مالي): كتاب الموطأ لمالك، والمدونة لسحنون، والمختصر لخليل، والأصول، والبيان، والمنطق، وأصول السبكي، وتلخيص المفتاح، وألفية العراقي، وصغرى السنوسي، وشرح الجزرية، وحكم ابن عطاء الله مع شرح زروق، ونظم ابن مقرعة للهاشمية في التنجيم[8].

ومن الكتب التي تدرس عندهم أيضاً: الرسالة للقيرواني وجامع المعيار الدنشريسي، ومدخل ابن الحاج، ومقدمة التاجوري، وصحيح الجوامع للسبكي، ودليل القائد للقرطبي والتوضيح على ابن الحاج، وصحيح البخاري ومسلم وصحيح الترمذي، والشفا في التعريف بحقوق المصطفى للقاضي عياض، وتحفة الحكام لابن عاصم، ورجز المغيلي في المنطق، والمعجزات الكبرى للسيوطي، والجامع الصغير، وإضاءة الدجنة، وعقيدة السنوسي المعروفة بأم البراهين، وتسهيل ابن مالك، والخزرجية في العروض، وألفية ابن مالك، وألفية السيوطي في النحو، ولامية الزقاق، ومقامات الحريري، ولامية العرب والعجم.

وبشكل عام فإن العلوم التي يستوجب استيعابها عند طالب العلم في السودان الغربي هي: الفقه، والأصول، وعلوم الحديث، والتفسير، والقراءات، والعقائد، وعلوم اللغة العربية (النحو والمعاني والبيان والأدب والشعر) والحساب والفلك، والمنطق، والسيرة النبوية، وغير ذلك من العلوم الإسلامية التي كانت تدرس في سائر أنحاء العالم الإسلامي في ذلك الحين[9].

وكان لهذه المناهج والكتب المدروسة والعلماء الذين درسوها كبير الأثر في تكوين صفوة من الدعاة والعلماء ذاع صيتهم في السودان الغربي، وبرز تأثيرهم في الشمال الإفريقي الإسلامي، وهنا يمكن الاستشهاد بدور أحمد بن القاضي التنبكتي الذي زار تونس والمغرب في ذهابه ورجوعه من الحج إلى بيت الله الحرام، فكتب رسالتين تدلان على متانة منبعه في العلم والدعوة إلى الله على بصيرة، وهما:

- هتك الستر عما عليه سودان تونس من الكفر.
- وشكاية الدين المحمدي إلى رعاية الموكلين به.

ويعلق المحققان لهاتين الرسالتين على تأثيرهما بقولهما:

«ويمثل النصان تجاوز الحركة الإصلاحية بالسودان الغربي لإطارها الجغرافي وامتداد أثرها شمالاً إلى تونس والمغرب، ولهذا فهذان النصان يمثلان مساهمة في تأريخ

المجتمعات المغربية وتأثير العناصر السودانية في ثقافتها وهو تأثير أعمق مما نتصوره عادة»[10].

2) التسامح والمرونة في نشر العلم والمعرفة:

وكان التسامح هو الغالب في نشر علوم الإسلام من قبل العلماء في السودان الغربي إلى المناطق الأخرى، فقد أشار الأوراني، إلى أن التسامح كان دأب سكان هذه المناطق، فعلى سبيل المثال ذكر أن «تنبكت لها فضائل لا تحصى منها: أن كل من كان خائفاً أو هارباً يأمن، ومن سكن فيها عاماً أو أكثر نسي مكانه ولا يرجع، ومن نوى لأهلها سوءاً قبل دخوله فيها فمتى دخل ينساه أو يتوب، فهي مدينة لم تزل من حين أسست دار فقه وعلم وصلاح ودين وولاية، ولا يخفى ما في أهلها من السماحة وحسن السياسة والرياضة، لا غلظة فيهم ولا فظاظة، لا ينكرون عادة غريباً، ولا ينقصون أجنبياً، وكذلك مما شُحِذُوا من الخيرات وعاد من رجالها من البركات... مقامها من السودان مقام الوجه من الإنسان»[11].

وتجاوز هذا التسامح الديني القواعد والمعاملات الفقهية ليصل إلى العادات والتقاليد، فقد كان التوجه الإسلامي بين علماء منطقة السودان الغربي يقوم على أن على الإنسان المسلم الإفريقي أن يغير ما بذاته حتى يكون قادراً على تغيير المجتمع الذي حوله، ولذلك فقد اهتم علماء السودان الغربي بتعميم التربية الإسلامية، من أجل تكوين إنسان منسجم مع المجتمع الذي يطمح إلى إقامته[12].

ونفس هذه الصورة من التسامح في نشر العلوم الإسلامية في السودان الغربي أشار إليها بوكاري نديای حينما قال: «إن دعاة الإسلام حرصوا – عند بداية دخول المنطقة التي تشكل دولة مالي الحالية – على عدم إلغاء كل التقاليد والأعراف التي وجدوها قائمة في عين المكان، ذلك أنهم رأوا من المفيد لنشر الإسلامي التسامح إزاء ما كان سائداً من مظاهر السلوك الاجتماعي، وذلك حينما لا يلاحظ فيها ما يمس بالمبادئ الأساسية للدين الجديد، والتي يمكن لموقف التسامح تجاهها أن يخدم انتشار الإسلام

على الشعوب التي لم تؤمن بعد به، وقاعدتهم في ذلك: أن كل تقليد يفوق وجوده أربعين عاماً، ولا يكون فيه مساس بالمبادئ الجوهرية الموجودة في القرآن والأحاديث النبوية يمكن التسامح تجاهه، ولكن دون الأمر به، وهكذا فإننا نجد أنفسنا أمام مزيج من تعاليم الإسلام، ومن الأعراف المحلية التي رأى دعاة هذا الدين التسامح تجاهها خدمة لانتشار الإسلام الذي كانوا يدعون إليه[13].

3) الإحسان والتضحية في تأسيس المراكز والمدن وجامعة سنكري الإسلامية:

وبالإضافة إلى الأمانة العلمية في نقل العلوم الإسلامية وسماحة صدورهم في تجاوزهم عن بعض العادات المحلية التي لا تخالف تعاليم الإسلام، اتسم العلماء في السودان الغربي بالتضحية والإحساس فيما يُعلي كلمة الله ويرفع العلم.

فقد ذكر علي كولو غوديالو أن الشيخ محمد بن عمر المرجي (ت 1946م) قد أدرك في وقت مبكر أهمية امتلاك المصادر العلمية لذلك بعث إلى السوق بقطيع الأبقار الذي كان في حوزته، والذي كان يتكون من سبعة وأربعين رأساً، واستخدم ما عاد عليه من ثمنها جميعاً في شراء الكتب من تونس والمغرب، وهكذا كون خزانته الخاصة التي كانت من أغنى الخزانات في المنطقة[14].

وكان لهذا العالم كبير الأثر الإسلامي في منطقة تشاد حينما زارها في طريق رحلته إلى الحج فكان يقيم الدروس والإرشاد والمواعظ الدينية في كل منطقة يحلّ بها، مما جعل العدد الكبير من المواليد الذين ازدادوا أو ولدوا بعد زيارته أيام الاستعمار الفرنسي أن يُسَمّوا باسمه، فلنا الآن في تشاد قادة كبار باسم الشيخ ابن عمر، وصل واحد منهم إلى منصب وزير للخارجية التشادية وزميله الآخر إلى رئيس لجامعة تشاد، وتقلد عدداً من الوزارات منها وزارة التخطيط.

ويظهر من التاريخ الاجتماعي لمنطقة السودان الغربي أن الأساس في إنشاء أكبر مدينتين إسلاميتين في المنطقة وهما تنبكتو وجنى، وأكبر مؤسسة تعليمية إسلامية

هي جامعة سنكري.كان الإحسان والتضحية ليس من رجال المنطقة فحسب بل من نسائها المحسنات.

فحول إنشاء مدينة تنبكتو تؤكد الروايات والكتب المحلية أخذ اسم هذه المدينة العظيمة من امرأة كانت تقوم بخدمة الطوارق أثناء ورودهم لبئر الماء التي تسكن حولها، وتحرس لهم أمتعتهم وحوائجهم التي لا يريدون حملها معهم لثقلها أو للضمان والحفظ الذي توفره لهم هذه السيدة المحسنة، فنحت اسم المدينة من اسمها «بكتو» و«توم» وتعني «البئر» وبذلك أصبحت المنطقة ترمز إلى الارتواء والأمانة، فالسيدة «بكتو» تحرس البئر وتتولاها، فتوفر في المنطقة الماء والأخلاق، ثم تحولت المنطقة من مجرد استراحة بسيطة للقبائل الرحل إلى مركز تجاري هام ومن ثم جذبت العلماء والفقهاء من كل بلدان العالم يتلقون العلوم الإسلامية في جامعتها سنكري[15].

وذكرت بعض الكتب تضحية والد بابنته من أجل إنشاء مدينة جنى، حيث تشير القصة المأثورة حول تأسيس المدينة في التاريخ القديم إلى أن كاهنة أشارت إلى الملك أنه قبل بناء السد والسور للمدينة القديمة عليه بالتضحية بفتاة شابة، فتطوع حاكم المدينة الذي يسمى جنور بابنته الشابة، فانبرى أحد أفراد رعيته، ففدى بنت الحاكم بابنته الشابة، بحجة أن قدره وقدر قبيلته دون قدر الملك جنور، فسعى بالتضحية بابنته الشابة للرفع من مكانته ومكانة قبيلته، وذلك بسبب إسهامهم بالتضحية بابنتهم من أجل إنشاء سور المدينة بسلام وطمأنينة[16].

وهكذا استمرت التضحية والإحسان من أهل السودان الغربي، حيث أشار الكتاب ومن بينهم السعدي إلى أن الذي قام ببناء جامعة السنكري سيدة غلالية فاضلة كانت ذات ثروة وحسب ونسب، وقد ذاع صيت هذه الجامعة لما بلغته من مستوى علمي رفيع، وجعلت من مدينة تنبكتو عاصمة من عواصم الدين والعلم والأدب في بلاد السودان، وكانت جامعة سنكري تقوم بنفس المهمة التي تقوم بها معاهد ومدارس وجامعات فاس ومراكش والقاهرة الدينية من حيث أساليب التدريس وغيرها، وكذلك

المنهج والكتب المقررة، والتدقيق في نوعية الأساتذة ومدى إجادتهم للفنون العلمية التي يدرسونها[17].

وفي مجال العطاء والبذل والإحسان الذي كان الأساس في التطور العلمي في السودان الغربي، لابد من الإشارة إلى جهود سلاطين هذه البلاد في رحلاتهم إلى الحج التي كانت مناسبات للبذل والعطاء في جميع ميادين البر والإحسان، فيذكر أن السلطان أسكيا محمد في رحلته إلى الحج تصدق بمائة ألف مثقال من الذهب، واشترى في المدينة قطعة أرض ومبنى لإيواء حجاج بلاد السودان الغربي، كما اشترى بساتين وجعلها وقفاً على أهل بلاده، وفي مكة ابتاع ضيعة وبنى عليها داراً، ثم حبسها على بيت الله الحرام، ثم اشترى سلعاً وهدايا مختلفة من أسواق مكة.

ومع ذلك فإن الكتاب يشيرون إلى أن رحلته كانت أقل لفتاً للانتباه من رحلة حج السلطان منسا موسى بعده باعتباره أقل سخاء من موسى[18].

وحدد الأوراني إحسان وعطايا الحاج محمد أسكيا على النحو التالي: «تصدق على فقراء الحرمين بمائة ألف دينار ذهباً، واشترى بمثله جناناً وبيوتاً وحبسها على الفقر اء والعلماء والمساكين ومن أتى من السودان الغربي في تلك الأرض المباركة، وهي معروفة هناك إلى الآن، واشترى السلع وجميع ما يحتاج إليه بمائة ألف»[19].

وذكر الكتاب ما أورده ابن بطوطة من مآثر السلطان منسا موسى أنه سخي كريم يحب العلماء ويجذل لهم العطاء، وهو الذي منح أبا إسحاق الساحلي مبلغاً ضخماً وقدره أربعة آلاف مثقال، ويذكر ابن خلدون أن المبلغ أكثر من ذلك بكثير، فما حمله الشيخ الساحلي حسب رأي ابن خلدون من الذهب مائة حمل من التبر كل حمل ثلاثة قناطير، وما حمله السلطان منسا موسى معه إلى الحج قدر ّه بعض الباحثين بثمانين حملاً من التبر في كل حمل ثلاثة قناطير، أهدى منها الكثير في طريقه إلى الحج للملوك والسلاطين والعلماء والمساكين[20].

4) التركيز على القضاء والإمامة لتأمين تثبيت العلوم الإسلامية:

ولا يمكن إنهاء مظاهر البيئة العلمية والسياسية والاقتصادية التي اتصفت وتميزت بها بلاد السودان الغربي التي نشأ وترعرع فيها القاضي محمد المهدي الذي نكتب عنه إلا بإعطاء بسطة موجزة عن التركيز الذي أولته هذه البيئة لوظيفتي القاضي والإمام، باعتبارهما من أهم الوظائف التي لا يقوم بها إلا العلماء الصلحاء الأولياء في هذه المناطق.

وبالرجوع إلى المصادر والمراجع التي تناولت المنطقة نجد الأوراني قد ذكر من قضاة المنطقة الأتقياء ثلاثين قاضياً، بدأهم بالقاضي محمد الكابر، وأنهاهم بالقاضي عمر شرف بن القاضي أحمد بابا التنبكتي المشهور.

وذكر من الأئمة تسعة وعشرين إماماً، هذا في المسجد الجامع في تنبكتو فقط، وأقر الشيخ الأوراني أن القاضي هو الذي ينصب الإمام في المسجد الكبير، واستشهد بحادثة وفاة الإمام صديق بن محمد تعلي، حيث تنازع أهل الجامع الكبير بين الفقيه كداك الفلاني والفقية أحمد بن صديق، فاختار القاضي العاقب الفقيه كداك لسعة علمه إماماً للمسجد، فبالإضافة على صفات العلم والصلاح والمعرفة الشاملة للعلوم الشرعية يجب أن يتصف الإمام بالالتزام بواجبات الإمامة، ومنها أن لا يتخلف عن أداء الصلاة أبداً، واستشهد الشيخ الأوراني في هذه الميزة بالإمام كاتب موسى الذي مكث في الإمامة أربعين سنة، لم يتخلف ولو في صلاة واحدة لأجل صحة البدن، وذكر بأن الإمام سيد (أبو) القاسم التواتي سكن بجوار المسجد من جهة القبلة ليس بين المسجد وداره إلا الطريق الضيق، بعدما ابتنى محضراً (محضرة) قبالة المسجد لاصقة به، وفيها يعلّم الأطفال، ولا يُسمح بأن تجتمع وظيفتي القضاء والإمامة عادة، إلا في حالة نادرة، ذكرها الأوراني، وهي حالة القاضي الإمام العاقب بن العاقب بن العاقب بن محمود، حيث إنه لما مات القاضي محمد كلفه الأمير أسكيا داود بحمل القضاء فجمع بين المرتبتين إلى أن توفي، ولم يُسْتَنَبْ في صلاة من الصلوات، إلا في مرض موته رحمه الله، ووقعت هذه الحالة الفريدة في مسجد سنكري الجامع فقط[21].

ونظراً لخطورة منصب القاضي هذا، كان العلماء لا يتقبلونه إلا تحت إلحاح وتمسك شديدين من سلطان البلاد، وذلك لما كانوا يرونه من تبعة ومسئولية خطيرتين أمام ربهم في حالة قبوله، والخوف من الإخلال فيه بواجب الأمانة، ولذلك كانوا عند قبوله يتحملونه بأمانة وجدارة، حتى أنه لم يسمع عن واحد منهم أنه أخلّ مرة بشرف العدالة وهو يتولى مسؤولية القاضي في هذه البلاد، ويذكر أنه منذ زمن السلطان أسكيا محمد فإن السلطة في مدينة تنبكتو في الواقع في يد القاضي المعين من قبله، وله استقلال تام من حاكم المدينة، فالقاضي هو الحاكم الأعلى فيها، والمشرف على النظام، والمراقب للعادات، وكانت له اعتراضات كثيرة على بعض قرارات الموظفين الإداريين للدولة، والواقع أن عناية الحاكم بالقاضي في بلاد السودان الغربي لم تكن كما هو معلوم من ابتكار سلطان سنغاي، لأن الباحث يلمس هذا الاهتمام بمكانة القاضي لدى سلاطين دولة مالي السابقين له واللاحقين، الذين كانوا حريصين على تقريبه منهم وخطب ودَّه في كل وقت وحين، كما كانوا يتحينون الفرص ليشاركهم القاضي في أسفارهم وتنقلاتهم داخل أقاليم الدولة – بل داخل المدينة الواحدة، وذلك في أثناء الجولات التفقدية العادية التي كانوا حريصين خلال القيام بها إلى الاستماع إلى تظلمات الرعية، ورفعها عنهم بإذن القاضي، وبالتالي جذبت مكانة القاضي هذه الناس إلى اللجوء إليه في مختلف قضاياهم بدلاً من الاتصال المباشر بالسلطات الرسمية الأخرى للدولة، لذلك كان للقاضي معاونون كثيرون يرسلهم إلى الجهات الحكومية لإبلاغ رغبات المواطنين وشكاواهم، وتولي القاضي بجانب الفصل في الخصومات بين الناس مهمة توجيه المراقبة على الأحوال المدنية والشؤون الأخلاقية ورعاية أموال اليتامى حتى البلوغ، وعلى أموال المتوفين لحين حضور ورثتهم الشرعيين أو موكليهم، على أن أهم وظائف القاضي كانت تتمثل في الإشراف على التعليم ومتابعة سير مناهجه، كما كان يُعيّن المدرسين في منطقة، ويَحصي عدد الطلاب ويقدم المساعدات إلى المحتاجين منهم ويقوم ببناء المدارس والمساجد، ويهتم بتوسيعها وترميمها وذلك كله من خزينة

السلطان أو الدولة ومن فاعلي الخير، وبالتالي فإن سلطات القاضي واسعة نظراً لما يباشر من مهام كثيرة، ويساعده على أداء واجبه استقامة وإخلاصه في القيام بكل واجباته بأمانة وصدق، مما يكسبه احترام السلطة الرسمية (السلطان وأعوانه) وحب العامة وتقديرهم، وفي الغالب يحكم القاضي في السودان الغربي بالمذهب المالكي، ولكل مدينة قاضيها الخاص، أعلاهم شأناً قاضي مدينة تنبكتو.

ومما يميز القاضي في هذه المناطق ويكسبه قوة ومتانة في إصدار أحكامه وتنفيذها استقلاله الاقتصادي باعتماده في تسيير أموره على أموال الوقف التي كان هو المسؤول المباشر عن الإشراف عليها، وتحديد أوجه صرفها بمساعدة معاونين له يخضعون في كل تصرفاتهم لقيادته وأوامره[22].

فهل كان لمثل هذه البيئة الثقافية والسياسية التي سادت في السودان الغربي اثر في نشأة الشيخ القاضي محمد المهدي الصمب أنجاي الذي ندرس تأثيره على حوض بحيرة تشاد؟

ثانياً : تأثير القاضي محمد المهدي الصمب أنجاي حول بحيرة تشاد:

1) النشأة العلمية لمحمد المهدي في السودان الغربي (مالي):

كان للجو العلمي والثقافي والسياسي في مناطق السودان الغربي في بداية القرن العشرين، وظهور الاستعمار كعامل مهدد للتراث الإسلامي الذي ذكرت نبذة عنه في الفقرات السابقة، كبير الأثر في نشأة الشيخ محمد المهدي في بلاد السودان الغربي.

فقد ذكر الشيخ محمد المهدي الصمب أنجاي في السيرة الذاتية التي كتبها عن نفسه، وسلّم نسخة منها إلى الشيخ إبراهيم صالح الحسيني الذي نشر أجزاء منها في مخطوطه المسمى: الاستذكار لما لعلماء كانم برنو من أخبار، أن الشيخ محمد المهدي من مواليد ليلة الجمعة 25 ذو القعدة 1325هـ الموافق 1907/12/31م بمدينةسومنكيد بأرض السودان الغربي سابقاً، المعروف اليوم بجمهورية مالي حالياً[23].

وقد عرفه الشيخ إبراهيم صالح بأنه: الشيخ الجليل والفقيه الأصيل المحدث الكبير العلامة النحرير القاضي محمد المهدي بن إبراهيم بن فودي صمب أنجاي بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر السيونكي الملاوي، نشأ في وسط علمي، فقد تعلم القرآن على والده إبراهيم، وبعد وفاة والده، وكان عمره عشر سنوات واصل قراءة القرآن مع شقيقه محمد حبيب الله وجو ّده في سنتين، وبعد إتمام تعليم القرآن شرع في دراسة الفقه المالكي على يد شقيقه الآخر هدية الله، ودرس عليه رسالة أبي زيد القيرواني، في ثمانية عشر شهراً، وأخذ عنه مختصر خليل في سنتين، والعاصمية في أربعين يوماً، وغيرها من كتب الفقه المالكي، وأخذ عنه في اللغة المثلثات والدالية والمقامات وابن دريد، والمقصور والممدود لابن مالك وغير ذلك من كتب اللـغة والأدب[24].

2) رحلته العلمية إلى بلاد شنقيط:

ومن الواضح أن الشيخ محمد المهدي قد مر بنفس المنهج الذي مر عليه سابقوه من علماء السودان الغربي، فمنهجهم التعليمي يتكون من ثلاث مراحل هي:

أ- المرحلة الأولى: وفيها يتعلم الأطفال مبادئ القراءة والكتابة ويحفظون أجزاء من القرآن الكريم، ويستعين الصبيان في هذه المرحلة بالألواح الخشبية، وغالباً ما يتلقى الأطفال هذا التعليم الأولي في الفصول والحلقات الملحقة بالجوامع والمساجد، ولكن ما يميز تعليم الشيخ محمد المهدي الأولي هو أخذه له من الأسرة ومن والده وشقيقيه الأكبر والأصغر، وهذه عادة منتشرة في الأسر المتعلمة.

ب- أما مرحلة التعليم المتوسط في السودان الغربي فتتمثل في العناية بتجويد القرآن الكريم وشيء من الفقه واللغة العربية بفروعها المختلفة وشيء من الحساب والفلك، وقد ينتهي مثل هذا التعليم المتوسط بإجازة يمنحها المعلم بعد أن ينال شيئاً من التمر أو الحبوب أو الماشية نظير إيصاله للطفل أو التلميذ إلى هذه المرحلة من التعليم، هذا في حالة التعليم المتوسط الذي يعطي خارج الأسرة أما وضع شيخنا القاضي محمد المهدي فقد رأيناه ينهل جميع علوم هذه المرحلة من شقيقه محمد هدية الله

ج- أما في مرحلة التعليم العالي، فإن الغالب أن يرحل الطالب أو يخرج إلى المراكز والجوامع والحلقات الكبرى حيث يجلس الأستاذ على كرسي عال ويجلس حوله الطلاب، وفي هذه الحلقات الدراسية يناقش التلاميذ كتاباً من أمهات الكتب ويعلقون عليه، تحت إشراف أستاذهم أو أساتذتهم، وقد اشتهرت الحلقات التي عقدت في جامعة سنكري في مدينة تنبكتو، وضاهت شهرتها، شهرة جوامع القرويين والزيتونة في فاس وتونس[25].

وقد تلقى الشيخ محمد المهدي المراحل التعليمية السابقة في مسقط رأسه في السودان الغربي (مالي) ولكنه تاق إلى زيادة علومه، فارتحل إلى بلاد شنقيط سابقاً، المعروفة الآن بموريتانيا ليتم تعليمه العالي، واستقر في مدينة بوتلمين، وقرأ النحو على العلامة سيدي محمد ابن الدادة، أخذ عليه الآجرومية وملحة الإعراب، وعلى العلامة السيد بن أبيه الأبياري فأخذ عليه ألفية ابن مالك وشروحها في النحو والصرف والإحمرار لابن بونة، والخزرجية في العروض والقوافي، ولامية الأفعال في الصرف.

وكأن رحلته إلى بلاد شنقيط في مرحلتها الأولى من أجل دراسة اللغة العربية ونحوها وصرفها وعروضها وقوافيها بالذات.

وأثناء وجود الشيخ محمد المهدي في بلاد شنقيط وبعد أن تعلم اللغة العربية بفنونها المختلفة، سَمَتْ هِمَّته إلى المعالي في تهذيب النفوس والأخلاق والسير إلى الله في طريق القوم، فلازم الشيخ أحمد بن الشيخ سِيدِي بن الشيخ سِيدِي محمد بن الشيخ سِيدي الكبير وسلك بين يديه وتلقى منه الكلمة المشرقة.

وقال صاحب الترجمة (محمد المهدي) أن شيخه بايعه على التقوى والإخلاص وأوصاه بالنصيحة وملازمة الأذكار والصمت والاعتزال في آناء الليل وأطراف النهار وقيام الليل وصيام النهار وتعليم العلم وتدريسه وملازمة الخلوات في الكهوف والمغارات، وأذن له في الصادر والوارد من أهل الله، ثم أنه تربى بين يدي شيخه تربية حسنة مدة من السنين[26].

ومن الملاحظ أن الشيخ محمد المهدي تلقى علوم الفقه واللغة العربية في بلاد السودان الغربي ثم أتم منهجه في علوم اللغة العربية في بلاد شنقيط ولكنه أضاف إليها

التصوف، وهو فن يغلب أن يكمل به علماء المنطقة تعليمهم باعتباره مقرباً إلى التقوى، فعندهم العلم بلا عِقَال التقوى يقود إلى الحسد والتكبر.

ولما رأى الشيخ محمد المهدي أنه استكمل بعض ما كان يرجو تعلمه من علماء شنقيط، استأذن من أستاذه الشيخ أحمد بن سِيدي بن الشيخ سِيدِي محمد بن الشيخ سِيدي الكبير، يطلب منه القيام برحلة أخرى، وهذه المرة إلى الأراضي المقدسة، ولكن طلب هذا الإذن كان بطريقة ذكية وطريفة يحسن بنا أن نذكرها، وهي أنه من الآداب المرعية بين الطالب وأستاذه أن لا يذكر له أنه يريد مغادرته، لكي لا يعطي الانطباع بأنه ملّ منه أو أنهى علومه، ورأى أن هناك علماء أكثر علماً منه، وغير ذلك من عوامل الصرف التي قد يتصورها الأستاذ أو الزملاء، وتثير لدى الأستاذ شيئاً من الريبة أو الغضب على طالبه، فكان الطلاب الأذكياء يلجأون إلى حيلة التورية التي تعلموها من أساتذتهم، ويطبقونها من خلال قرض قصيدة متميزة فيها من الإشارات الذكية ما يوحي بطلب الإذن بالرحيل للطالب من أستاذه، وهذا يعني أن تكون القصيدة متميزة ودالة على المقصود، ولا يُخبر بها كاتبها إلا من يثق به من المقربين إلى شيخه، وأن تصله بطريقة غير مباشرة ولا مقصودة.

واختار الشيخ محمد المهدي قصيدة من البحر الطويل وقافية اللام، وصرح فيها بطلب الرحيل بحجة زيارة الأماكن المقدسة (مكة والمدينة) ومطلعها:

وقَد جدّ الرّحيلُ مُشرقاً صدَر شملال ذَئلٌ وتألل
مضعضعة البيداء كان خفافها تذوع الصخور كالسَّخَاسِخِ مبزل
تراها وقد حمى الوطيس كأنها بكل عران البِنةٌ ملِ ذَبْكَل
إذا ما اكفهر الليل وازْوَرَّ جانبي ولاح الثريا كالسمرج كمَدّل
وفاح نسيم المسك والليل مظلم تذكرت ربعاً فيه عذراء كَهْدل
قفا وابكيا يا صاحبيّ منازلاً غدا عرصها جود النوائب كَهْبَل
منازل لم تنبت عفاراً ولم يكن نرجس فالمنظران وحَنظَل

منازل قد كانت معاهد لي بها بها فضفاض سعد وأرْفُلِ
وما تَرَيِنّ اليوم يا أمَّ سَالم كئيباً فإني والحوادثُ بُكّلِ
أبيت رقيباً للطوالع والصَّبَا أراعي نجوم الليلِ والليلُ ألْيَلِ
أعَلِّلُ نفسي في لعلك أو عسى تنالين يوماً ما ترومي ويَفْضُلِ
أجوب قفاراً لا يطيق سَفَنَّجٍ عليها بأرقال وطير خَبَرْجَلِ
يقول أصَيْحَابي وقد سئموا النوى وهَالَهُم حالي متى أنت تَقْفُلِ
أقول لهم درك العُلَى مُتَتَبَّعاً ولولا العلى ما كنت بالقَفْرِ أرْقُلِ
لأن قدّر المولى الرجوع فإنكُمُ قَافِلٌ وإلا فالقِيَامَةُ مَحْفَلِ
عسى يُمَن شَيْخِي شمسُ الدين تتالني ويشملني ما آل سِيدِيَّ يَشْمَلِ
إمام الهدى ما زال بالعلم عاملاً بنهج سبيل العَارفين يَحْجَلِ
وأنت أيا سِيدَيَّ شمس معارف وغيركَ نجم والنجُومُ تُجَرْدِلِ
عليك سلام الله ما لاح بارق وما أنشد المهديك فيُطَوّلِ
بقَيت بقاء الكهف يا غاية المنى وأُعطيت ما ترجو وللخلق جَعْدَلِ
توجهت نحو المصطفى سيد الورى بجاهكمُ أرجو الوصول وأسأل
عليه صلاة الله ما هبت الصّبا وما حن وغرّد بُلبُلِ [27]

وهي قصيدة دالة على أدب طلاب العلم في مطالبتهم بالرحيل من أساتذتهم، وفيه من الأدلة ما يستفاد منه بلوغ الطالب لدرجة معينة من إجادة اللغة العربية مما يسمح له بالإذن بنشرها وتعليمها بعد هذه المرحلة.

ومن الملاحظ أن أستاذه قد فهم مقصود طالبه من قرض هذه القصيدة، بعد أن تم تداولها بين المقربين له وذاع صيتها بين كبار طلاب الشيخ، وفهم الجميع ما يراد منها، فَسُمِحَ للشيخ محمد المهدي بالسفر من بلاد شنقيط التي كان لتتلمذه على شيوخها وتأثره بثقافتها كبير الأثر في حياته في المستقبل، فقد أشار طلاب وتلاميذ الشيخ محمد المهدي في فورت لامي (تشاد)، ومن بقي على قيد الحياة منهم إلى اليوم أن منزله كان

قبلة الزوار من الأشراف من المغرب، وأغلبهم من بلاد شنقيط، وسنذكر في ثنايا هذه الورقة البحثية حادثة لزوار من شنقيط حضرها الشيخ إبراهيم صالح الحسيني في منزل الشيخ محمد المهدي في فورت لامي.

وفي رحلته راجعاً من بلاد شنقيط إلى الشرق، في طريقه إلى الحج، مرَّ بعدد من بلاد الإسلام مثل: السنغال ونيجيريا، وجلس فيهما مدرساً للعلوم الشرعية والعربية، ولكنه لما وصل إلى فورت لامي العاصمة التشادية مكث فيها أكثر من إقامته في العواصم والبلدان السابقة، وحلى له المقام ودرَّس فيها أصنافاً من العلوم واشتهر بتفسيره المطول للقرآن الكريم في رمضان وغيره، حتى أنه يذكر البعض أن الشيخ محمد المهدي ظل يفسر سورة واحدة من القرآن الكريم ولم يكملها في ثلاثة أعوام وهي سورة البقرة، ثم سافر إلى السودان الشرقي وسكن في أم درمان مدرساً بالمعهد العلمي فيها، وذلك بطلب من شيخ المعهد الشيخ أحمد أبو ذقن، ومكث في التدريس بالمعهد سنة كاملة، مشاركاً في الأنشطة الثقافية والدينية، ثم رحل إلى بور سودان وظل فيها سنة كاملة أيضاً لم يذكر فيها نشاطه العلمي.

ومن مواقفه أنه لما كان في أم درمان تحاور مع الشيخ حسنونة من علماء أم درمان حول أفكاره في الذكر بأعداد معينة، والتوسل، ودليل لفظ الحديث وعترتي بدل وسنتي، فرد مستدلاً بالكتاب والسنة والإجماع.

وطلل إلى أرض الحجاز دَرَسَ على إمامها الوهابي أبو السمح عبد الظاهر، وقرأ عليه في منزله البلاغة ومصطلح الحديث ودواوين العرب ولامية العرب ولامية العجم والصحاح الستة إجازة، فهو وا ٍن كان لم يذكر المدة التي قضاها معه، فإن الدراسة عند إمام مكة الوهابي من قبل شيخ متصوف مثل الشيخ محمد المهدي يدل على سعة الأفق والتسامح الديني الذي عرفناه من البيئة العلمية لعلماء السودان الغربي، الذين استفادوا من علوم السيوطي وهو شافعي المذهب، رغم ما يعرف عن علماء هذه المنطقة من تمسكهم الشديد بالمذهب المالكي.

والتقى الشيخ محمد المهدي في مكة الشريف الحسيني الخطابي الإدريسي السنوسي وأخذ عنه الأربعين وطرق متفرقة حسب طلبه، ثم زار مدينة جده، وقرأ على العلامة الشيخ عبد الرءوف بمنزله البديع والبيان والمعاني والسيرة والمنطق، وذلك مدة وجيزة.

وفي المدينة المنورة اجتمع الشيخ محمد المهدي بالمعتزلي محمد الصويلي، ولما سأل رجل الشيخ محمد المهدي عن ولد صغير مات قبل البلوغ، هل يسأل في القبر أم لا؟ فقال الشيخ محمد المهدي: لا، وسمعه المعتزلي، فقال: لم؟ فقال الشيخ محمد المهدي: لعدم التكليف، والتكليف موجب للسؤال، ومن لم يبلغ فليس عليه سؤال. وحصلت بينهما مناقشة شديدة، فيمن لا يعذب في القبور، وأنكر محمد الصويلي حديث أبي نعيم في الحلية، ورد عليه الشيخ محمد المهدي بأسانيد صحاح، كما رد عليه في المتشابهات في الكتاب والسنة.

وكان للشيخ محمد المهدي علاقات وطيدة مع فضيلة الشيخ محمد الحافظ بالقاهرة، وذكر الشيخ إبراهيم صالح الحسيني دليلاً على هذه العلاقة، أن الشيخ محمد الحافظ لَمَّا زار مدينة كانو بنيجيريا كان أول من سأل عنه الشيخ محمد المهدي إبراهيم.

3) استقراره في مدينة فورت لامي 1936 (أنجمينا حالياً):

ولما أتم الشيخ محمد المهدي إبراهيم رحلته إلى الحج، رجع واستقر في فورت لامي وتوطن فيها – حسب تعبيره – من سنة 1355 حتى سنة 1378هـ الذي يوافق 1936 – 1967م، وهنا ظهرت ملكات الشيخ العلمية والثقافية، فكان يُدرِّس العلوم الشرعية واللغوية في منزله والجامع الكبير، فذاع صيته وكثر تلاميذه، فعُيِّنَ على منصب قاضي القضاة بالمحكمة الشرعية بفورت لامي من سنة 1952 – 1963م، وظل يؤدي دوره التعليمي في الحلقات بالإضافة إلى القضاء، ويقسم وقته بشكل يسع وظيفته القضائية ويوزع الزمن الباقي على تلاميذه، كل يقرأ العلم الذي يريد قراءته،

ويدخل الكتاب الذي يستطيع فهمه، من فقه ولغة وأدب وأصول وحديث، ويفتخر بأنه من أوائل العلماء الذين يُدَرِّسُون الصحاح الستة رواية، وهذا كله بالإضافة إلى تفسيره للقرآن الكريم بالشكل الذي ذكرناه سابقاً، مما أعطاه ميزة على أقرانه، في الإحاطة بعلوم الغرب الإسلامي بالإضافة إلى علوم الشرق التي نالها من علماء الحجاز كما أسلفنا.

4) نشره للعلم والمعرفة (دروسه وحلقاته وفتاويه وحواراته ونقاشاته العلمية):

ويمتاز مجلس درس الشيخ محمد المهدي بفورت لامي بالحكايات والْمُلَحِ والنوادر، وكان يتوسع في الدرس بحيث ينقل جميع ما يتعلق بالقضية، وهي طريقة ناجحة في التدريس بالنسبة للمنتهين – حسب رأي الشيخ إبراهيم صالح الحسيني – أما المبتدئون فلا تفيد معهم، وهذا والله أعلم من الأسباب التي جعلت انتفاع الناس بعلوم صاحب الترجمة محدوداً ولم يُرَ في هذه البلاد أحد ألم ببعض فنون علم الحديث على قاعدة المحدثين مثل صاحب الترجمة، لأن غاية علماء هذه البلاد في علم الحديث أن يَدْرسُوا الموطأ والشفاء والأربعين النووية، وإذا توسع أحدهم مر على الصحيحين مرّ الكرام، دون رواية محررة ولا دراية معتبرة، ولا يصير الإنسان محدثاً بمجرد ذلك... ولولا أن صاحب الترجمة لم يتجه إلى هذا الفن وحده، واشتغاله بالقضاء... وتعرضه للمحن والمناصب الكثيرة، لكان فيه بالمنزلة الرفيعة التي لا تنكر، فهو على ثقافة عالية في رواية الحديث، مع أن الغالب على أهل هذه البلاد أنهم يقولون: إن الأحاديث تقرأ للتبرك، وإنما تؤخذ الأحكام من المختصرات في الفقه والفروع، ولقد أدى ذلك إلى عزل المجتمع تماماً عن السنة ومعرفة علومها، وتسبب في إكباب جهلة الوعاظ على كتب القصص مثل قصص الأنبياء والمجالس العصفورية ودرة الناصحين، ودقائق الأخبار في ذكر الجنة والنار ونزهة المجالس، وما ضاهاها، مما لا يعده أهل المعرفة في كتب الحديث، لا في القديم ولا في الحديث.

والشيخ محمد المهدي مالكي المذهب كما هي عادة سكان السودان الغربي أشعري العقيدة، يميل إلى مذاهب المحدثين فيما فيه خلاف من المسائل بين العلماء،

ويعرف الشيخ محمد المهدي ما بين أقرانه بأنه شديد المحبة لأهل البيت النبوي، يعظمهم ويكرمهم، لذلك لا يخلو بيته في فورت لامي منهم في أغلب الأحيان، وهذا ما يسهل فهم موقفه من الحادثة التي ذكرها الشيخ إبراهيم صالح الحسيني في منزل الشيخ محمد المهدي، حيث صلى لهم الفريضة أحد الأشراف، فأسرع في الصلاة، ولم يذكره القاضي محمد المهدي في حينه.

5) توليه منصب قاضي القضاة في فورت لامي (1953 – 1963م):

ولكن اعتباراً من الفترة التي تولى فيها الشيخ محمد المهدي القضاء ظهرت جماعات من بين أبناء السودان الغربي ينادون بالعمل السياسي في داخل الجماعة الفرنسية الإفريقية، وفي أحزاب معينة مثل حزب (M.S.A) و(R.D.A)، وظهر قادة سياسيون مثل سليمان ناي، وجالو، وساكو، وغيرهم، وكان للشيخ محمد المهدي أثره في التوجيه السياسي للمسلمين نحو حزب أو قائد دون آخر، فاستقطبته جميع قادة الأحزاب السياسية، ولكن حياده السياسي الظاهر لم يشفع له، بعد احتدام الصراع السياسي واستقلال البلاد من الاستعمار الفرنسي عام 1960م، وتولي الرئيس فرانسوا تمبلباي السلطة، وتبع ذلك قمع واضطهاد للقادة السياسيين المسلمين عامة والقادة السياسيين من جالية السودان الغربي خاصة، وكانوا يتميزون بالحنكة والدراية وارتفاع المستوى التعليمي والخبرة السياسية، باعتبارهم وصلوا إلى هذه المناطق أصلاً كمواطنين معاونين للإدارة الاستعمارية الفرنسية، فكانت حظوظهم السياسية لا تقل عن حظوظ أقرانهم من سكان المنطقة بل تفوتها، فلم تَقْبَل الصفوة السياسية منهم هذا السطو من المسيحيين لتولي قيادة الدولة من الفرنسيين، واعتبروا ذلك مؤامرة تُخفِي وراءها مظهراً دينياً، حيث تَرَكَ الفرنسيون النصارى لخلفائهم التشاديين السلطة السياسية عُنْوَةً ودعموهم على ذلك بكل قوة.

وما الانتخابات أو أي شكل من أشكال نقل السلطة السياسية إليهم إلا خداع سياسي انكشف أخيراً .

ويبدو أن الشيخ محمد المهدي خرج في بعض خطبه العامة أو قضاياه الشرعية عن حياده السياسي، فأشار إلى هذا الظلم الذي وقع على المسلمين في تشاد عامة، وعلى قادة الجالية التي ينتمي إليها بوجه خاص، فقام الرئيس تومبلباي بتدبير مؤامرة سمحت له بإبعاد الشيخ محمد المهدي ونفيه سياسياً عن البلاد.

وخلاصة هذه المؤامرة أن وصية وصلت إلى الرئيس تومبلباي بأن يتقرب من جالية السودان الغربي (مالي)، وذلك بأن يتزوج من أحد بناتهم، وبذل الرئيس تومبلباي المسيحي كل ما في وسعه من دهاء ومال ووعود للوصول إلى هدفه بأن خطب بنت أحد أفراد هذه الجالية المشهورين، وأغراها بكل ما ذكرنا، ثم تزوجته على طريقتها، ولكن ليتم الرئيس مبتغاه في إبعاد الشيخ محمد المهدي عن الساحة السياسية التشادية، أقام الرئيس حفل عشاء رئاسي دعا إليه عِلْيَة القوم وكان من بينهم الشيخ محمد المهدي بحكم وظيفته كرئيس للمحكمة الشرعية، وحضر الحفل الوزراء والسفراء وكبار رجال الدولة وجزء من قادة الأحزاب السياسية في البلاد.

وفي نهاية الحفل طلب أحد الخبثاء من القاضي محمد المهدي إبراهيم أن يختم الحفل بالفاتحة فعوف الشيخ بفطنته الفخ الذي زرع له، فقام فقرأ قطعة من الشعر.

ونظراً لأهمية هذه الحادثة في حياة الشيخ محمد المهدي ودوره حول بحيرة تشاد، أترك المجال للشيخ إبراهيم صالح الحسيني الذي حاور صاحب القصة شخصياً بعد حدوث الحادثة ودونها في الاستذكار بقوله:

«امتحن محمد المهدي – رحمه الله –كثيراً بأمور وقعت له في حياته بعضها أشد من بعض منها: حضوره مجلس عقد زواج بين رئيس جمهورية تشاد السابق (فرانسوا تومبلباي) الذي ارتد من المسيحية إلى الوثنية، ببنت أحد المسلمين من أهل مالي وهو أمر أثار غضب المسلمين جميعاً في داخل وخارجها، ولما سألته عن حقيقة ما نقل في ذلك من توليه العقد لهذا الكافر، فرد عليَّ بقوله: إنني حضرت الحفل فعلاً، وقرأت شيئاً من لامية امرئ القيس، ثم قال: أنت تعرف الظروف الصعبة التي أمر بها

في ذلك البلد، ولم أكن على علم بشيء من أمر هذا الزواج، وعلمت أنهم فعلوا ذلك كيداً ومكراً، ليجدوا إلى النيل مني سبيلاً، فحضرت مع من حضر، وعقد القران غيري، وا ٍنما طلبوا مني بعد إتمامهم كل شيء، أن أقرأ لهم الفاتحة، فقرأت عشر أبيات من لامية امرئ القيس التي مطلعها:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

واستطاع أن يتخلص من شر الرئيس وأعوانه، أليس الله بكاف عبده، وهكذا تعرض رحمه الله في آخر عمره إلى مشاكل كثيرة»[28]

وكان من آثار هذه الحادثة تفاقم الغضب لدى بعض فئات المسلمين الذين انطلت عليهم هذه الحيلة، وعدوا قاضي القضاة من علماء السلطان الكافر، وبدأ التذمر يصل إلى الجهات الرسمية سعياً منها إلى تغييره، باعتباره ليس أهلاً لتولي منصب قاضي القضاة، ولكن لرئيس الجمهورية التي دبر الحادثة رأي آخر، تجسد في اتخاذ قرار رئاسي بإبعاد الشيخ محمد المهدي إلى السودان الغربي، وتعيين قاض آخر مكانه، وكان النفي من فورت لامي سنة 1963م، حيث نفي عن البلاد، ووجهت إليه تهمة الخيانة العظمى للدولة، ومما يؤكد تلفيق هذه الحادثة أن الرئيس نفسه قد اتخذ بعد سنوات قليلة مرسوماً بالعفو عنه وأعاده إلى البلاد دون القضاء.

ويذكر الشيخ إبراهيم صالح الحسيني أن الشيخ محمد الحافظ من أوائل من غضبوا على الشيخ محمد المهدي حينما أخبر بالقضية، ولما أخبره الشيخ إبراهيم صالح الحسيني بتفسير الشيخ محمد المهدي للحادث من صاحبها استغرب جداً، ولم يره كافياً، وقال: لم لم يفعل إمام المسلمين في البلد؟[29].

وكان للشيخ القاضي محمد المهدي آراؤه واجتهاداته وترجيحاته الفقهية والعلمية التي اشتهر بها، سواء أثناء أدائه لمهامه كرئيس للقضاة الشرعيين بمدينة فورت لامي أو في فتاويه ومناقشاته العلمية التي يعقدها داخل البلاد تشاد وخارجها.

ومما عرفنا عنه أن له رأياً خاصاً في ترجيح الصوم بالمطالع، عارضه فيه كثير من علماء عصره من أهل بلده تشاد وغيرهم، فكان صاحب الترجمة يؤيد رأي العلامة سحنون في حاشيته على شرح الزرقاني على خليل، في جنوحه على رأي القرافي في الصوم بالمطالع.

وللشيخ محمد المهدي رأي وفتوى بحرمة الوقف في القراءة في الصلوات المفروضة، باعتباره يُبْعِدُ الخشوع، وهو رأي لم يُسبق إليه من قبل.

ومن الملاحظ على الشيخ محمد المهدي تساهله تجاه ضيوفه من أهل البيت النبوي، فنظراً لحبه الشديد لهم، يعظمهم ويكرمهم كثيراً، لذلك لا يخلو منزله منهم في أغلب الأحيان، وحكى الشيخ إبراهيم صالح الحسيني –كما ذكرت سابقاً – ما لاحظه في زيارة له في منزل الشيخ محمد المهدي في فورت لامي سنة 1380هـ، حينما وجد ضيوفاً من موريتانيا، وحينما أقيمت الصلاة المفروضة، توقع الجميع أن يؤمهم الشيخ القاضي، ولكنه كلّف أحد ضيوفه بالإمامة، فأسرع في صلاته لدرجة لاحظ فيها الشيخ إبراهيم صالح الحسيني خلوّ الصلاة من الطمأنينة، ولكن الشيخ محمد المهدي تجاوز عن هفوات هذا الإمام الضيف، خاصة السرعة في الصلاة المفروضة، لدرجة جعلت الشيخ إبراهيم صالح الحسيني يعيد صلاته بعد رجوعه إلى منزله، ومما أكد للشيخ إبراهيم صالح، هذا التجاوز غير المبرر، أن الإمام الضيف الموريتاني لما انتهى من صلاته السريعة توجه إلى المأمومين بالسؤال التالي:

ما هو أول واجب على المكلف عندكم في تشاد؟ فلم يرد عليه الشيخ محمد المهدي تأدباً معه، مع أن الإجابة من المعلوم بالضرورة أمور الدين، فأجاب الإمام الضيف، أن أول واجب على المكلف عندهم في موريتانيا هو حفظ متون الأشعار، وعلى رأسها:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل.....

ولم يعقب القاضي محمد المهدي على هذا الجواب الطريف[30].

وساهم الجهد العلمي الذي بذله الشيخ محمد المهدي في نشر العلوم والمعارف الإسلامية القادمة منلغرب الإسلامي، وكو ّن مدرسة لها أتباعها ومؤيدوها، مقابل المدرسة التي تلفت تعليمها من المشرق، خاصة الذين تخرجوا من المعاهد العلمية في كل من أم درمان والقاهرة، فالقاضي محمد المهدي من مدرسة المتون والحديث، مقابل المدرسة المشرقية التي تعتمد على المختصرات والملخصات، وفيها شيء من الاتجاهات الفكرية الإسلامية مثل جماعة الإخوان في مصر، وجماعة محمد بن عبد الوهاب في الحجاز[31].

وللشيخ محمد المهدي من التلاميذ في مدينة فورت لامي منهم: الإمام حسن التوم بن دمان الذي أخذ عنه صحيح البخاري رواية، وراجع عليه تفسر الجلالين والموطأ وابن جمرة، حتى أجادها، ونظراً للمكانة الاجتماعية التي يتمتع بها تلميذه هذا، فقد وجد الشيخ محمد المهدي رعاية من والد تلميذه وهو الشيخ دمان الذي كان إماماً للجامع الكبير في فورت لامي، وكان زعيماً وشيخاً لقبيلة بابيلية الكبيرة في بوطة الفيل، وكان على علاقة مع الفرنسيين، حيث تبنوه بمرسوم من قبل السلطات الفرنسية في منصبه منذ تاريخ 1905/8/3م. وكان الإمام حسن التوم محبوباً من قبل والده، وكان يقدمه على باقي إخوانه في رعاية شؤون القبيلة والمنطقة، ويقدمه في الصلاة في المسجد الكبير ويقتدي به.

ومن تلاميذه الشيخ عبد الرحمن آدم حلو والشيخ موسى عمر عبد العزيز (عميرة) عضو المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بجمهورية تشاد حالياً، وغيرهم كثير، خاصة من الذين أتيحت لهم فرصة الإقامة في فورت لامي في زمنه.

وله علاقات متميزة مع العلماء في المنطقة، فقد عرض عليه الشيخ إبراهيم صالح الحسيني بعض كتبه لمراجعتها، ذكر منها: فجر التحقيق في تخريج الأحاديث الدائرة بين أهل الطريق، ففرح بالكتاب وقرظه، وهكذا قرظ له كتاب: الإسلام وآراء المحرفين العصريين، وأثنى على الكتابين خيراً، وطالب بالتعجيل بنشرهما.

6) إنتاجه العلمي (مخطوطاته ورسائله):

وللشيخ محمد المهدي مصنفات ورسائل وقصائد كادت أن تكون ديواناً .

وقد أحصى الشيخ إبراهيم صالح الحسيني في كتابه المخطوط: الاستذكار لما لعلماء كانم برنو من أخبار، ومن مصنفات الشيخ محمد المهدي التالي:

1. كتابه المسمى الحصر في فنون العشر، ولم يعثر الباحث على نسخة منه.
2. كشف الغوامض عن ذوي الفرائض، وهو كتاب عظيم في علم الميراث، عثر الباحث على نسخة مخطوطة منه في مدينة أنجمينا عام 1991م من يد الإمام المرحوم محمد علي إمام، إمام وخطيب الجمعة ورئيس المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميةبمدينة أبشة دار وداي، وكان يدرّس هذا الكتاب في حلقته المشهورة في علم الميراث في الجامع الكبير في العاصمة أنجمينا، وحينما أعطاني الكتاب لأصور نسخة منه، أخبرني أنه لو عرف الناس ما في هذا المصنف من توضيح للميراث لما قرءوا الرحبية، وأودع الباحث نسخة منه ضمن مخطوطات المعهد الوطني للعلوم الإنسانية بجامعة تشاد آنذاك، جامعة أنجمينا حالياً، وهو تحت رقم (28) سنة 1991م.

ويحتوي هذا المخطوط على تسعة أبواب هي: أسباب الميراث، والحاجب والمحجوب، والوارثون والوارثات، وما يمنع التوارث وذكر ميراث ولد الزنا واللعان، والباب الخامس خصصه لشروط الميراث، والسادس في ذكر اعتراف الميت بدين لوارث واعتراف وارث لأحد أو لنفسه والزوجة بصداقها واعتراف وارث بوارث والباقين على الإنكار، والباب السابع في ذكر ميراث الطارئين والمتنازعين والوليين ومجهول الحال ومن لا يرث من ذوي الأرحام بأرحامهم شيئاً وتناول في الباب الثامن ميراث أهل الملل، والباب الأخير في ذكر الفضل بعد ذوى الفرائض كأحد الزوجين مع وجود ذوي الأرحام، وناقش في الخاتمة حقوق الميراث الشرعية وأهميته، ومن الملاحظ في هذا المخطوط تأثره بالمدرسة السائدة في السودان الغربي حيث ختم المؤلف بسرد يلخص الكتاب كله

تقريباً ويضيف إليه مسائل جديدة في شكل سؤال وجواب تسهيلاً لطالب العلم كما يذكر المؤلف، ويذَكِّر هذا المخطوط القارئ بأجوبة المغيلي والسيوطي على ملوك مالي السابقين.

وقد بدأه بالبسملة والحمدلة، أما بعد، فيقول الفقير كمّ له الله... محمد المهدي بن الشيخ إبراهيم بن فودي صمب أنجاي... أن المقصود في هذه الأوراق تبيان أهل الفرائض من الرجال والنساء وذوي العصبة والولاء، وسميته كشف الغوامض عن ذوي الفروض في مذهب الإمام مالك بن أنس،... وختمه بالتالي:... وهذا آخر ما أردنا جمعه وتوضيحه، وكان الفراغ منه في الساعة الواحدة وخمس وخمسين دقيقة بعد الزوال، يوم الاثنين سادسة جمادي الثاني 1377هـ 28 ديسمبر سنة 1957م.

3. مبادئ التصوف، ولم يعثر الباحث على نسخة منه.
4. رسالة في نصوص صوم رمضان سماها كشف القناع عن عدم ثبوت رمضان بالمذياع. ويذكر الشيخ إبراهيم صالح الحسيني أن الشيخ محمد المهدي استعرض في هذه الرسالة آراء المذاهب الأربعة وتفسير الآيات والأحاديث المؤيدة لما ذهب إليه. ولم يعثر الباحث على نسخة منه.
5. وله قصائد عديدة منها قصيدته التي كتبها إلى شيخه في شنقيط المسمى الشيخ أحمد بن سيدي بن الشيخ سِيدي محمد بن الشيخ سِيدي الكبير يطلب الإذن منه إلى زيارة الأماكن المقدسة والقصيدة من بحر الطويل وقافية اللام، وقد أوردناها في فقرة سابقة من هذا البحث.

وقد علق عليها الشيخ إبراهيم صالح الحسيني بأنها تتكون من اثنتين وعشرين بيتاً، ثم قال: انتهت بتعديل طفيف... ولقد تركت منها ما لم يستبن لي معناه، أو كان ركيكاً فاحشاً، وهي أول قصائده كما قال، وهي دالة على نبوغه ومستقبله في الشعر لولا أنه قطعه، ولقد أنشد كثيراً من الأشعار المتفرقة، وكلها لم تصلني سالمة من الانكسار الموجب للإعراض عن ذكرها، على الرغم من أن صاحب الترجمة هو بنفسه ناولني

إياها عندما كتب لي ترجمته، والكلام للشيخ إبراهيم صالح الحسيني في كتابه: الاستذكار لما لعلماء كانم برنو من أخبار.

ورأى الشيخ إبراهيم صالح الحسيني سابق الذكر لم يمنعه عن إيراد إحدى قصائد الشيخ محمد المهدي في زيارة له لمدينة ميدغري حاضرة الشيخ إبراهيم صالح الحسيني، فتبادلا الزيارات المنزلية، وقرأ له شيئاً من أحاديث الموطأ من حفظه، وفي أحد زياراته للشيخ إبراهيم صالح الحسيني قرأ بعضاً من أشعاره مرتجلاً من غير تريث ما يلي:

لأهـ غ ُ ذ ْ فِي من الآيـ م ُ ثبتةً نبِي عن الشيخ إبراهيم في النجبا
أعطاه رب الورى في الغيب منزلة من قبله لم ينلها الصُّبَّحِ النقبا
ونال ما نال من عز ومكرمة ومن مقام على أولي النهى أربا
فكن بجدك خير الخلق معتصمًا ومُلك الدين والآثار ُ لا عَ طَبَ ا
صلى الإله على الهادي ما وشجت في الأيك ُ و َ ر ْ ق ٌ أو شَ دَ ى و َ صَ بَ ا
والآل والصحب ما المهدي ينشدنا تتبى عن الشيخ إبراهيم في النجبا

وكلما يقال عن الأعمال العلمية والأدبية للشيخ محمد المهدي، هو أنها متعددة شملت علوم الفقه وأصوله، والحديث وأصوله، والتفسير وشروحه، والعربية وآدابها وأشعارها، ونتج عن هذا كله فكر خصب شارك به صاحبه في جميع الأنشطة العلمية والثقافية والسياسية التي كانت سائدة في عصره، سواء في رحلاته العلمية إلى كل من مسقط رأسه في السودان الغربي (مالي) إلى بلاد شنقيط، ومنها في رحلة إلى الأراضي المقدسة، شملت نقاشات وحوارات علمية من السودان الأوسط والشرقي إلى الحجاز مكة والمدينة وجده، ولكن ما لاقاه الشيخ محمد المهدي من تقدير وحفاوة عند أهل فورت لامي، خاصة من قبل تلميذه الوفي الإمام حسن دمان وغيره من سكان العاصمة التشادية، وما وجده من عطف ورعاية من الجالية التي تسمى عموماً بالسنغالية، وأغلبهم

من سكان مالي الحالية، كان لكل ذلك كبير الأثر في استقراره في العاصمة التشادية، وبعد اكتشاف قدراته العلمية والفقهية عُيّن رئيساً للقضاة الشرعيين في العاصمة، وهو منصب يوازي قاضي القضاة في المناطق الإسلامية الأخرى.

وقد أدى وظيفته تحت ظروف سياسية وثقافية شديدة الحساسية، حركتها نشاطات الأحزاب السياسية نحو الاستقلال وما تبع ذلك من تجاذبات سياسية بين الشمال المسلم، والجنوب المسيحي، وما وقفه بعض أبناء غرب إفريقيا في هذه الحوادث عدها بعض القادة السياسيين بأنها منحازة نحو الشمال المسلم، مقابل مواقف تتقرب من الأحزاب الجنوبية، التي ظهر أنها الأكثر تنظيماً، واستفادة من الإرث الاستعماري الفرنسي الذي ينوي ترك البلاد في يد القلة من أبناء البلاد المسيحيين.

وترافق هذا التدافع السياسي مع رجوع فئات من المثقفين باللغة العربية من السودان ومصر متأثرين بأفكار الثورة العربية في كل من مصر والسودان، والمنادية بحقوق المسلمين السياسية في تشاد، بحكم أغلبيتهم السكانية[32].

وكان لرد الرئيس التشادي تومبلباي القوي والعنيف على هذه الفئات المسلمة أثر كبير على الحياة الوظيفية والسياسية للشيخ محمد المهدي فيما بعد.

حيث إنه حاول أن يتكيف مع السلطة السياسية ويتعايش معها، ولكن مطالب المسلمين ازدادت وارتفعت المناداة بها في جميع المنابر السياسية، وظهرت بعض محاولات قادة الأحزاب السياسية المسلمين ليستفيدون من مكانة المثقفين بالعربية العائدين من مصر، وعلى رأسهم الشيخ محمد عليش عووضه وأتباعه، خاصة وأن رأيهم السياسي معارض وشديد الكراهية لسيطرة المسيحيين على السلطة، مما جعله في صدام مباشر مع الحكومة وعلمائها وعلى رأسهم الشيخ محمد المهدي وتلميذه الإمام حسن دمان.

فبدأت السلطات الاستعمارية في إبعاد بعض المثقفين باللغة العربية المعارضين لها عام 1953م وعلى رأسهم الشيخ محمد عليش عووضه معاقبة له على مواقفه تجاه النهج السياسي الذي تريده فرنسا لمستعمراتها بعد الاستقلال[33].

وقد أدت عمليات النفي والإبعاد هذه مفعولها في البداية حيث خمدت الحملات المنادية بالاستقلال النهائي عن فرنسا، وهذا ما جعل الرئيس تومبلباي يطبق نفس نهج النفي والإبعاد على القادة الدينيين الآخرين الذين كانوا في الفترات السابقة من المتكيفين مع الحكم بل المؤيدين له في بعض مواقفه.

ومن ها نفي الشيخ محمد المهدي هو أيضاً عام 1963م بعد عشر سنوات من نفي زميله الشيخ محمد عليش عووضه، ولكن إلى غرب إفريقيا، لفترة من الزمن ثم عُ في عنه، من نفس الرئيس تومبلباي، بمرسوم رئاسي أعاد إليه حقوقه في المواطنة دون وظيفة رئيس القضاة.

وظل الشيخ محمد المهدي يدرس العلوم الشرعية في منزله في العاصمة أنجمينا بصورة منتظمة بحارة أمبسطنا إلى آخر أيام حياته، حتى أن بعض تلاميذه أشاروا إليه بالتدخل في تغيير جدوله الدراسي لكي يتيحوا لأستاذهم قليلاً من الراحة، وانتقل إلى جوار مولاه في عام 1400هـ، بعد أن ترك سنة حسنة له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة إن شاء الله، وهي علم ينتفع به.

الخـاتمة

هذه بعض اللمحات من مساهمات الشيخ القاضي محمد المهدي الصمب أنجاي، الذي نشأ وترعرع في البيئة الثقافية التنبكتية في السودان الغربي (مالي) ثم رحل في طلب العلم غرباً إلى بلاد شنقيط، فعاش بها حياة علمية حافلة بالتلقي والحفظ والإتقان والأدب العلمي والروحي (التصوف) الذي كان سائداً في عصره، فارتوى من هذه الينابيع العلمية في الغرب الإسلامي، ثم سعى في رحلة طويلة إلى الأراضي المقدسة مكة والمدينة، وفي طريقه نقل العلم وبنفس الروح والأمانة العلمية في نشر العلم

والمعرفة التي تميزت بها الثقافة التنبكتية في الاعتزاز بالعلم ورفع شأنه والتضحية من أجل نشره بروح من التسامح والمرونة الموروثة بالنقل والعقل في المذهب المالكي السائد في الغرب الإسلامي، ولكن مواقف معينة من قبل عرب بوطة الفيل وعلى رأسهم ابن سلطانهم تلميذ الشيخ محمد المهدي المسمى حسن دمان، ساهم في ربطه علمياً وثقافياً وسياسياً واجتماعياً بالعاصمة التشادية فورت لامي، فرجع من الحج إليها واستقر فيها بروحه العلمية المرحة، وصلابته التي لا تعرف المهادنة في الأحكام الشرعية، فعيّن رئيس القضاة في العاصمة، ولكنه قام بهذه الوظيفة على نهج أهل تنبكتو، فاعتبرها منبراً لإعلاء كلمة الله ونشر العلم والمعرفة، وليس كما اعتاد ملوك وسكان هذه البلاد بأن لا يتولى القضاء عندهم إلا من هو أقرب العلماء إلى السلطان وربما الأقرب أيضاً لجماعته وأطماع رعيته.

فأعطى القليل من وقته للقضاء، والكثير منه للتدريس والإفتاء والمطالعة، وخدمة الضيوف من أهل العلم وطلابه والزوار من بلاد المسلمين، خاصة زوار المغرب العربي من الأشراف الذين دَرَس الشيخ محمد المهدي على يديهم وفاء وعرفاناً بجميلهم نحوه، ونظراً لمكانته كعالم عامل بعلمه واجه صعوبات علمية وسياسية عديدة تعامل معها بكل موضوعية، حتى نفي من الموطن الذي اختاره لنفسه سنة 1963م إلى غرب إفريقيا نظراً لمواقفه السياسية بعد استقلال تشاد، ولكن وفاءه لوطنه الذي اختاره بنفسه جعله يطلب العفو من رئيس الجمهورية ويجده، ثم يعود إلى العاصمة التشادية من جديد ويلتف حوله تلاميذه، مع تفرغ تام لهم هذه المرة، فظل يعطي العلم بدون مقابل إلى أن ارتفعت روحه إلى باريها، وواصل تلاميذه دروسهم بعده، يتدارسونها على مخطوطاته ومنهجه الذي تراوح بين الترويح عن النفس بعرض الملح والحكايات وبين المفيد من آيات الأحكام والمواريث.

الحواشي

1. كمرا، الشيخ موسى: أشهى العلوم وأطيب الخبر في سيرة الحاج عمر، (تحقيق وتقديم وتعليق: خديم محمد سعيد امباكي ، وأحمد شكري) منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، 2001م.
2. التنبكتي، أحمد بن القاضي: مصلح فولاني في بلاد المغرب، نصيحة أحمد بن القاضي التنبكتي إلى أولي الأمر بتونس والمغرب، (تحقيق وتقديم: محمد المنصور وفاطمة الحراق) منشورات معهد الدراسات الإفريقية الرباط، 2000م.
3. البرتلي، أبو عبد الله الطالب محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي الولائي (1140 – 1219هـ): فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، (تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني، ومحمد حجا) دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981م.
4. بابا، أحمد (ت 1627م): معراج الصعود، أجوبة أحمد بابا حول الاسترقاق، (تحقيق وترجمة: فاطمة الحراق، وجون هانويك) منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط 2000م.
5. الأوراني، مولاي أحمد بابير: السعادة الأبدية في التعريف بعلماء تنبكت البهية، (دراسة وتحقيق: د. الهادي المبروك الدالي) جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس، 2001م، ص 79.
6. المرجع السابق، ص ص 49 – 50
7. بابا، أحمد : معراج الصعود، (تحقيق وترجمة:فاطمة الحروق، وجون هانويك) معه الدراسات الإفريقية ، الرباط 2000م.
8. بابا، أحمد: تحفة الفضلاء ببعض فضائل العلماء، (تحقيق: سعيد سامي) معهد الدراسات الإفريقة، الرباط، 1992م.

9. البرتلي، أبو عبد الله الطالب محمد بن أبي إسحاق البرتلي الولاتي: فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، (تحقيق محمد إبراهيم الكتاني، ومحمد حجى) دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981م، ص ص 30 – 94.
10. التنبكتي، أحمد بن القاضي: مصلح فولاني في بلاد المغرب، نصيحة أحمد بن القاضي التنبكتي إلى أولي الأمر بتونس والمغرب، (تحقيق وتقديم: محمد المنصور وفاطمة الحراق) منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط 2000، ص ص 47 – 48.
11. الأوراني، مولاي أحمد بابير: مرجع سبق ذكره، ص 49.
12. سيسي، سيدو: «التربية الإسلامية» الحضارة الإسلامية في مالي المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، الرباط، ص 311.
13. نديايي، بوكاري: «حفلات الميلاد» الحضارة الإسلامية في مالي، مرجع سبق ذكره، ص 319.
14. ديالو، علي كولوغو: «محمد بن عمر المرجي (1366هـ 1946م)» الحضارة الإسلامية في مالي، مرجع سبق ذكره، ص 303.
15. الوريقاتي، علي محمد: «تومبكتو المدينة لم يسجد أحد فيها إلا لله تعالى» مجلة التواصل، العدد الثامن، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس، 2004م، ص 190.
16. الدالي، د. الهادي المبروك: مملكة مالي الإسلامية، مطابع الوحدة العربية، الزاوية، ط2، 1999م، ص 43.
17. شعبان، د. ماهر عطية: «جامعة سنكري في تنبكت ودورها الحضاري والثقافي في القرن السادس عشر 1492- 1590م» معهد البحوث الإفريقية، القاهرة، 2002.
18. علي، فاي منصور: أسكيا الحاج محمد وإحياء دولة السنغاي الإسلامية 889 – 935هـ - 1493 – 1529م، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، 1997، ص 69.
19. الأوراني، مولاي أحمد بابير: مرجع سبق ذكره، ص 66.

20. الدالي، د. الهادي المبروك: مرجع سبق ذكره، ص ص 33 – 36.
21. الأوراني، مولاي أحمد بابير: مرجع سبق ذكره، ص ص 119 – 131
22. علي، فاي منصور: مرجع سبق ذكره، ص ص 38، 91 – 96.
23. الحسيني، الشيخ إبراهيم صالح: الاستذكار لما لعلماء كانم برنو من أخبار، الجزء الثاني، مخطوط، مكتبة مركز البحوث والدراسات الإفريقية والترجمة، أنجمينا تشاد. ص 45.
24. المرجع السابق، ص 45.
25. الجمل، أ.د. شوقي: «تمبكتو كمركز ثقافي وعلمي في القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي»، ندوة جمعية اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة، نوفمبر 2001م، ص ص 22 – 23.
26. الحسيني، الشيخ إبراهيم صالح: مرجع سبق ذكره، ص ص 46 – 49.
27. المرجع السابق، ص ص 52 – 53.
28. نفس المرجع: ص ص 50، 55
29. نفس المرجع: ص ص 55.
30. نفس المرجع: ص ص 55.
31. نفس المرجع، ص ص 55 – 77.
32. محمد، عثمان علي: لمحات من تاريخ تشاد الإسلامي، مخطوط، مركز البحوث والدراسات الإفريقية والترجمة، جامعة الملك فيصل بتشاد، أنجمينا. وله أيضاً كتاب منشور تحت عنوان: طريق الحق والإسلام، مطبعة التمدن، الخرطوم، 1963م، وأعمال الشيخ محمد يعقوب دابيو، نبذة من علماء تشاد، مخطوط، مركز البحوث والدراسات الإفريقية والترجمة، جامعة الملك فيصل بتشاد، أنجمينا، وكلها أعمال كتبها مثقفون تعلموا في المعاهد العلمية بالسودان والأزهر الشريف، وفيها آراء مختلفة عن نهج الشيخ محمد المهدي، بل ومعارضة له بشدة في بعض المواقف.
33. قادرنيه، دافيد، أ: «محمد عليش عووضه في أبشة، تحدي الإصلاح الإسلامي ضد المطامع الفرنسية والزعماء التقليديين في وداي تشاد 1947م – 1956م» الإسلام

والمجتمعات في جنوب الصحراء، (ترجمة: محمد حسب الرسول) بيت العلوم الإنسانية، باريس، 1987م.

34. عميرة، الشيخ موسى عمر عبد العزيز: عضو المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بجمهورية تشاد حالياً، مقابلة في منزل الباحث، في حي رضينا، بالعاصمة أنجمينا، بتاريخ 2006/05/15م اجتماعات عقدت مع أحد تلاميذ الشيخ محمد المهدي بمناسبة قرب انعقاد ندوة الإسلام دين الوسطية التي أقامها المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بجمهورية تشاد بتاريخ 26 – 29 مايو 2006م.